

المجلد: 08 / العدد: 02 ديسمبر (2024)، ص.ص. 72-83

الأنساق الثقافية المضمرة في ترسبات الكتابة الإبداعية عند ياسمينه خضرا
(رواية "مكر الكلمات" و "فضل الليل على النهار" - أمثودجا -)

The Embedded Cultural Patterns in the Creative Writing Residues of Yasmina Khadra (Novels Makr al Kalimat (The Words Deceit) and Fadl al Layl Ala an Nahar (The Night's Grace On Day)-as Examples-)

عبد الكريم رويبي

rouibiabdkrim@gmail.com

جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف -

مخبر التراث والدراسات اللسانية، كلية الآداب واللغات، جامعة الطارف.
(الجزائر)

غنية بوطرفة*

gh.boutarfa@univ-eltarf.dz

جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف -

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/09/24

تاريخ الاستلام: 2024/07/01

ملخص:

تعنى هذه الدراسة بتقديم قراءة في الأنساق المضمرة، التي تحفل بها رواية "مكر الكلمات" و "فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا، إذ نهدف من خلال هذا المقال إلى إبراز الأنساق الثاوية خلف المكون اللغوي، وطريقة اشتغاله داخل الخطاب الروائي، من خلال تجريب آليات التأويل ومنهجيات النقد الحديثة التي من شأنها تفكيك الخطاب السردي وتحليله تحليلًا دقيقًا، ومن أجل تتبع سيورة الأنساق الثقافية المضمرة لا بد من تطبيق آليات المنهج الثقافي بالوقوف على أبرز المرجعيات الفكرية والثقافية التي تشكل على ضوءها العمل الأدبي. وبما أن النص الروائي مثقل بالحمولات الثقافية، بالتالي بات الكشف عن الأنساق وتعرية الخطابات واستكناه أبعادها الفكرية والثقافية أمر في غاية الأهمية.

كلمات مفتاحية: الأنساق المضمرة، النقد الثقافي، الصراع، الهوية، الرواية.

Abstract:

This study aims at providing an analysis of the underlying structures in Yasmina Khadra's novels 'Makr Al-Kalimat (The Words Deceit)' and 'Fadl Al-Layl Ala An-Nahar (The Night's Grace On Day). We seek through this article to highlight the thematic patterns beyond linguistic components and their narrative discourse within the novels. This involves employing interpretive mechanisms and modern critical methodologies to precisely deconstruct and analyze the narrative discourse. And in order to trace the embedded cultural patterns, it is essential to apply cultural methodological tools by examining key intellectual and cultural references that shape the literary work. Given the novels' cultural richness, revealing these patterns, exposing their intellectual and cultural dimensions, becomes highly significant

Keywords: Embedded structures; Cultural Criticism; Conflict; Identity; Novel.

- مقدمة :

إن الرواية كغيرها من الفنون الإبداعية الأخرى، تخضع لتأثير مختلف التحولات الاجتماعية، والسياسية والتاريخية التي ترتبط بالجموع فترصد جلينا علاقة التأثير والتأثر بينهما، فكل تلك التغيرات يترجمها المبدع في أعماله إما بشكل مباشر أو غير مباشر. غير أن تلك المنجزات الأدبية سردية كانت أو شعرية تحتاج إلى قراءة واعية معمقة وتأويل مقنن ومحكم، لمسيرة مدى تأثير الأنساق الثقافية المبنوثة داخل الخطابات بتحوّلها المتباينة على الفكر البشري ورصد أبعادها الفكرية والحضارية والانسانية. ومنه، فقد كان النقد الثقافي بمثابة التوجه الجديد والسبيل الأنجع في محاوره التصوص من أجل مساءلة بنيتها النصية من منظور ثقافي؛ أي أنه يبحث عن الدلالة العميقة للعمل وترصد حركتها وتفاعلاتها وتأثيراتها، إن على مستوى النص أو على متلقيه، وهذه هي الميزة التي جعلته يلقى رواجا واحتضانا من قبل النقاد والدارسين، علاوة على افتحاحه بالدراسة والتحليل على مختلف الخطابات الأدبية على تنوعها واختلافها رسمية كانت أو غير رسمية؛ (هامشية).

و اللافت للنظر، أن الاطلاقة الأولى لهذا التيار النقدي الجديد في وطننا العربي كانت مع الناقد "عبد الله الغدادي" الذي نقل إلينا هذا النوع من النقد من البيئة الغربية إلى البيئة العربية، محاولا تطبيق آليات هذا المنهج على التصوص التراثية الشعرية القديمة خاصة التي تحتاج - حسب - إلى إعادة قراءة وتقييم جديد ومستحدث لتلك المنجزات، فبحث في مثالب تلك الأعمال التي ظلت لفترة طويلة من الزمن تخلو من منهجية نقدية مقننة، لأن العملية النقدية العربية - على حد قوله - كانت تقتصر نوعا ما لرؤية نقدية تجمع بين التنظير والتطبيق، فالشعر كان من غير الممكن المساس به والحكم على جودته من عدما نظرا لمكانته المقدسة عند العرب القدامى، فكان النقد انطباعي وظل فترة من الزمن كذلك، كما أن الحكم السطحي على بعض التجارب الشعرية قديما استوجب إجراء ممارسات نقدية جديدة من شأنها تنقيح وفحص تلك الخطابات بأكثر دقة وأعمق غورا.

من هذا المنطلق ارتأينا أن يكون عنوان مقالنا موسوما بـ "الأنساق الثقافية المضمرة في ترسبات الكتابة الإبداعية عند ياسمينه خضرا رواية "مكر الكلمات" و"فضل الليل على النهار" - أمودجا -"، وبناء عليه تبلورت الإشكالية الآتية: كيف تجلّت هذه الأنساق في روايتي "مكر الكلمات" و"فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا؟ وهل تمكن النقد الثقافي فعلا من تعرية القبحات الثقافية المشكّلة للعمل الفني؟ ما أبرز المضمرات الثقافية التي تضمنتها الروايتان؟

سنهدف من خلال دراستنا إلى تسليط الضوء على خصوصيات الكتابة السردية الجزائرية مبني ومعنى والكشف عن الخلفيات الثقافية والمرجعية للمبدع الجزائري التي تضمنتها روايات ياسمينه خضرا من أجل تعرية الواقع بمختلف تناقضاته، متوسلين في ذلك المنهج الثقافي، الذي يسمح بتفكيك الخطابات تفكيكا معمقا.

- ماهية النسق بين اللغة والاصطلاح:

يعد النسق أحد أهم مركبات النقد الثقافي الذي انبى عليها هذا المشروع النقدي الجديد، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن "النسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نسقته تنسيقا (...)"¹ ويقول الزمخشري: "نسق التّزّ وغيره ونسقه، ودرّ منسوق ومنسّق ونسق، ونسقت هذه الأشياء وتناسقت. ومن المجاز: كلام متناسق، وقد تناسق كلامه، وجاء على نسق ونظام"². يتضح من خلال تعريف ابن منظور للفظ "النسق"، أنه يعني التتابع والانسجام والترتيب للأشياء دون وجود حاجز أو فاصل فيما بينها. ثم إننا لو عدنا إلى معاجم كثيرة، وتبعنا المعنى اللغوي للفظ "النسق" لوجدنا أنها اتفقت على المعنى نفسه أي؛ التالي والتنظيم والتناسق.

أما اصطلاحا، نجد لمصطلح "النسق" حضورا بارزا في عديد العلوم والميادين ففي المجال الأدبي، يعرفه علي محمد السلمي بأنه: "مجموعة من القوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي للنوع وتمكنه من الدلالة، ولما كان النسق تشارك في إنتاجه الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة، فإن النسق ليس نظاما ثابتا وجامدا، إنه ذاتي التنظيم من

هجة، ومتغير يتكيف مع الظروف الجديدة من هجة ثانية، أي أنه في الوقت الذي يحتفظ فيه بنيته المنتظمة بغير ملامحه عن طريق التكيف المستمر مع المستجدات الاجتماعية والثقافية³. نستنتج من خلال القول أن الظروف الاجتماعية والثقافية و السياسية و الحضارية... وغيرها تسهم في إنتاج النسق. وعليه، يتشكل النسق من مجموع القوانين والقواعد العامة الذي تتحكم في إنتاجه جملة الظروف الداخلية والخارجية، داخلية متعلقة بالشخص، وخارجية متعلقة بالمحيط الذي يعيش فيه، وهو ما يفسر طبيعته الغير ثابتة بل المتغيرة والمتجددة بحسب الظروف والأحوال. فالكاتب تحكمه أطر وقيم مجتمعية يفرضها عليه النسق العام الذي ينتسب إليه، غير أن نسق الرواية لا يستقر على نسق معين قار لا يتغير وإثما تتفاعل في تكوينه أنساق أخرى مغايرة لهذا لا نجد نسقا واحدا ثابتا وهذا ما يبين افتتاح النسق وانغلاقه في الآن ذاته.

ولعلّ هذا ما ذهب إليه كلود "ليني شتراوس" في قوله هو: "نقل مصطلح النسق إلى المحيط الثقافي ليطرح فكرة أن الأبنية الاجتماعية الملموسة، والظواهر الثقافية المختلفة، إنما هي محكومة ببنيات وقوانين خفية، كامنة في اللاوعي الإنساني وهو ما يقتضيه بحثا صريحا في البنيات الثابتة في العقل نفسه"⁴.

يتفق "شتراوس" مع "علي السلمي" في أن النسق يتغلغل ويتنامى في أعماق الدلالات التي تختزن في لاوعي المبدع وأتة من إنتاج الجماعة البشرية غير صادر من شخص واحد بعينه. ومنه، فالبنية النصية هي التي تسمح للنسق بالتواجد ضمنيا بين ثنايا الكتابة الإبداعية إلى غاية وجود قارئ يكشفها للظاهر وبيئتها جليا للعلن. و قيل عن "النسق" في مؤلف "ثقافة النص" بأنه: "تركيبة اجتماعية منغرس في أعماق الخطاب، تعبر عن الصورة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما، يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية كونها تختبئ خلف السطور، والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته"⁵. "و معنى ذلك أن الأنساق تعيش مع الفكر الإنساني منغرس في خطابات الكتاب والشعراء كونها تحمل - هذه الأنساق - صورة عن الحياة الاجتماعية والفكرية للأفراد والمجتمعات.

وما نستخلصه من خلال التعاريف السابقة أن الأنساق بإمكانها الامتداد والتغلغل في الفكر البشري إلى أبعد حد ممكن، لأنها مترسخة فينا بلا وعي منا.

- النقد الثقافي ومسارات التحول في نقد ما بعد الحداثة:

لم يستغ الناقد الطروحات الشكلانية والبنوية التي تقيد الدارس على تحليل النصوص وتفكيكها لإعادة بناءها بحرية مطلقة. وعليه، فقد لجأ الناقد إلى بدائل وممارسات نقدية حديثة جديدة من شأنها الكشف عن حيل الثقافة التي حفلت بها النصوص والكشف عن العيوب الجمالية التي تخللها، وتأثير تلك الأنساق الثقافية على الأفراد والمجتمعات. وما تجدر الإشارة إليه، أن ظهور النقد الثقافي - في بادئ الأمر - كان مع الباحث الأمريكي "فنست ليتش" فهو أول من استخدم هذا المصطلح بعدما ثار على النظرية الشكلانية الذي رأى أنها تضيق الخناق على دراسة العمل الفني، الأمر الذي جعل "ليتش" يساند هذا المشروع النقدي كونه يبحث في ما وراء أدبية الأدب، بالإضافة إلى افتتاحه بالقراءة والتحليل والنقد على الخطابات الأدبية وغير الأدبية بشكل عام، ما جعل المؤسسة النقدية تعيد النظر في تصنيفات الخطابات والمعايير التي تستند إليها في هذا الحكم. وعنه أخذ "عبد الله الغذامي" هذا المشروع النقدي الجديد فيما بعد.

و قد ذهب عبد الله الغذامي إلى القول " بأنّ النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللغة وحقول (الأسنسية)، معني بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي، بكل تجلياته وأنماطه وصيغته، من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو بهذا معني، لا بكشف الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي"⁶.

من خلال هذا القول يصحّح "الغذامي" أن النقد الثقافي لا يختص بنقد الجمالية الفنية للنصوص؛ وهذا يعني أنّه تجاوز معطيات النقد الأدبي ونظرياته و منهجياته وطروحاته، لكونه يركز على الجانب الجمالي اللغوي، دون التركيز على الأنساق المضمرّة خلف النسق العام للخطاب وما تحمله تلك الأنساق من قبحيات ثقافية متسربة داخله. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على درجة الوعي الثقافي الذي يمهّد لأنماط من التفكير لدى كل من المبدع والمتلقي على حد سواء من خلال بعد الرؤيا والتأويل العميق.

- التمثلات الثقافية في "رواية فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا:

تتداخل وتتفاعل العديد من الأنساق الثقافية داخل المتن الروائي، الأمر الذي سمح بتسرب آراء وأفكار جديدة وأحيانا دخيلة على الذهنيات العربية، بوعي من الكاتب أو من غير وعي منه، وهو ما يطلق عليه بالنسق المضمر، الذي يكشف عنه المتلقي من خلال قراءاته العميقة وتأويلاته المفتوحة المتعددة.

وتجدر الإشارة إلى أن النسق الثقافي هو بنية تتكون من عدة عناصر مترابطة ومتلاحمة فيما بينها تندرج كلها تحت مسمى الثقافة، فهو إما يشمل السياسة بماهي تصورات لنظام الحكم، وإما يشمل الفكر الديني بما هو تصورات واجتهادات باحثي وعلماء الدين وفيه مذاهب منذ قديم الزمان كذاهبا المعتزلة، الأشعرية، السنية، المتصوفة، إلى غير ذلك... ونجد أيضا النسق الفلسفي وفيه آراء الفلاسفة التي تختلف درجة العقلانية فيها أو درجة الرواية باختلاف الرؤى والتصورات بحسب كل فيلسوف: كالغزالي، و الفارابي، وابن سينا، وابن ماجة وغيرهم، ولدينا النسق الأدبي وهو الذي سنقف عنده بالدراسة. ومن أبرز الأنساق الثقافية الطاغية في رواية "فضل الليل على النهار" نجد ما يلي:

- النسق الدلالي للعنوان:

بعد العنوان الواحمة الأولى للعمل الفني وأول ما يشد انتباه القارئ، وكثيرا ما تجذب صياغته المثيرة للدهشة العديد من التساؤلات حول ما يضمه العنوان من مكونات لغوية وفكرية ثقافية إيديولوجية، في حين قد ينفر القراء من مؤلف أو رواية أو عمل ما لمجرد بساطة عنوانه أو صياغته المبتذلة. إذ من خلال العنوان يمكننا استنتاج العمل الفني قبل التعمق في المتن النصي، الذي يكشف فيما بعد عن العلاقة المتينة التي تربطها معا من خلال القراءة المعقدة المتأينة للعمل الإبداعي. والعنوان هو: "مرسلة لغوية تتصل في لحظة ميلادها بجبل سري يربطها بالتص لحظة الكتابة، والقراءة معا، فتكون للتص بمثابة الرأس للجسد نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية وجالية كبساطة العبارة وكثافة الدلالة وأخرى استراتيجية، إذ يحتل الصدارة في فضاء العمل الأدبي النصي"⁷، فالعنوان والتص مكملان لبعضهما البعض إذ تلعب وظيفته التعبيرية الإغرائية وحتى التأثيرية دورا كبيرا في نجاح وانتشار العمل الإبداعي من عدمه، لما يضطلع به من مهمة الإشهار والترويج من خلال فعل التشويق.

وبنأملنا لعنوان رواية "فضل الليل على النهار"، يتراءى لنا من الناحية التركيبية أنه مكون من مقطعين بارزين ألا وهما "الليل" و "النهار" وهما مدتان زمنيتان الأولى وتبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر والثانية تبدأ من شروق الشمس إلى وقت الغروب. وما يتراءى لنا من خلال القراءة السطحية أن فضل الليل على الإنسان يكمن في كونه المدة التي تصفو بها روح الإنسان والفترة التي يسترخي فيها من التعب طيلة يوم كامل من العمل والتفكير لتنظيم أموره في اليوم الموالي، أما بتعمقنا في عنوان رواية "فضل الليل على النهار" نجد، أنه يفتح على سمولات ثقافية متعددة إنطلاقا من تساؤلنا كيف يكون ليل فضل على النهار؟ وهل كان له فضل على النهار؟. نجد أن هذه الأسئلة تثير ذهن المتلقي للبحث عن العلاقة التي تربط بينها في هذه الرواية، وما هو الفضل الذي جعل الليل يعترف به للنهار، وهذا ما استثار لهف القارئ وتشوقه للغوص في متن العمل لإيجاد إجابات مقنعة لكل هذه التساؤلات.

فالعنوان جانبه الجمالي المستفز الذي لا يمكن للمتلقي تجاوز عتبه لكونه جزءا دالا مسهما في توضيح دلالة المتن النصي؛ يوضح طبيعته ويفك غموضه. لهذا يختار المبدع عناوينه بدقة بالغة الأهمية وينتقي ألفاظا إيحائية معبرة. وبالعودة إلى الرواية نجد أن البطل "يونس" لم يتحمل ما رآه في قريته "جنان جاتو" نهارا من خراب وفقر وبؤس، أكواخ هشة وكأنها حظائر حيوانات، مباني غير صالحة للسكن تنبعث منها روائح كريهة تفقر للكهرباء والماء، الأطفال بأثواب رثة متسخة، وكذلك انتشار المشردون في كل مكان والمجانين واللصوص والمنبوذين... وغيرهم، كل هذه المظاهر المروعة تملأ بطل اضمحلالها بقدوم الليل الذي يحجب عنه رؤية ذلك الوضع الكارثي التي يتخبط فيه سكان الحي، إذ فضل الليل بظلامه الحال ك على مشاهدة تلك المناظر البائسة والأوضاع المزرية التي لم يتصور نفسه تحتمل العيش في ذلك المكان لفترة طويلة من الزمن، ولكن على ما يبدو أن "يونس" مجبر على التأقلم مع الوضع لأن لا خيار بديل له من قرية جنان جاتو، لهذا فضل الليل بسكونه وظلمته على واقعه المرير البائس نهارا، وكان النهار يكشف له صعوبة وقساوة ما يعانيه أفراد الحي المغلوب على أمرهم. ومنه، جاء العنوان لكسر أفق توقع القارئ.

تبدو صياغة العنوان في رواية "مكر الكلمات" مثيرة للاستغراب، إذ يتجلى الأسلوب المستنفر لخيالة القارئ واضحاً بصيغته التلميحية الإيحائية الرامزة غير المباشرة، لفظة "مكر" تدل على الخداع والاحتيال والكيد، أما الكلمات؛ مفرد كلمة وتعني الألفاظ التي تمثلها مجموعة مترابطة من الحروف مفردة كانت أم مركبة، ومن خلال الجمع بين اللفظتين المتنافرتين أفصح على أنّ العنوان شديد المخلاتلة والمراوغة، كيف ياترى تكون الكلمات مأكدة وخادعة؟ وما السبب الذي يجعلها كذلك؟ يبدو ظاهرياً أنّ ما يراد إيصاله من قبل بطل الرواية أو الكاتب (كذات ساردة) لا يمكن لنا أن نعتبره كلاماً صادقاً صائباً إلى حد معين خاصة ما يتلفظ به المبدع كونه يتكلم بجرية تامة عما يريد التعبير عنه بلا قيود ولا شروط؛ أي أنّه يتلاعب بالألفاظ كيفما شاء. فالكاتب يسمينة خضراً مثلاً استطاع بفضل الكتابة أن يفرض ذاته من ضابط في الجيش إلى كاتب مشهور دون أن يتمكنوا من التعرف على اسمه الحقيقي "محمد مولسهول" إلا بعد أن كشف عن ذلك بإرادته، غير أنّ تحفيقه خلف اسم مستعار كان له أثر إيجابي، فقد ساهم في المشاركة الفعالة في التعريف بالقضية الجزائرية ومآسي الشعب الجزائري إبان الثورة التحريرية. فأخذ على عاتقه مسؤولية التعبير بشئى الطرق عن معاناة الشعب الجزائري من جور الإستعمار رغم تضيق فرنسا على ذلك، إلا أنّه تحدّى كل الظروف واستعان بالكلمة فكانت سلاحه القوي في وجه المستعمر المستبد. ما يتضح إذن، من خلال الروايتان أن الكاتب يشتغل بأفق حدائيّ يزع نحو التجريب ومسيرة التطور الحاصل في شق الكتابة الابداعية، وكسر أفق توقع القارئ بعد التأويل وتفكيك شفرات العناوين التي تعدّ مواطن زاهرة بالدلالات المكتنفة.

- جدلية العلاقة بين الأنا والآخر:

سعت الذات العربية لتأكيد هويتها في ظل الصراع القائم بينها وبين الآخر المختلف فكرياً واجتماعياً وايدولوجياً وعقائدياً، وقد شغلت ثنائية الأنا والآخر مساحة كبيرة في الرواية الجزائرية المعاصرة فهي، تحضر في الكثير من الأعمال السردية عموماً والروائية خصوصاً، ويختلف توظيف هذين المتضادين باختلاف رؤى وتصورات المبدع. فالافتتاح على الآخر بتنوع ثقافته ومعتقداته وعاداته وما إلى ذلك، يستدعي معرفة الأنا لذاتها معرفة دقيقة كذات مستقلة عن الآخر، وبالتالي يبقى الصراع الإنساني الوجودي قائماً طالما أنّ كل طرف معترف بذاتيته مجداً لها.

إنّ الأنا - من خلال الرواية - ترفض أن يتنكر بنو جلدتها لأصلهم وينسجموا مع الآخر إلى حد النوبان، بل ينبغي عليهم أن يلتحموا فيما بينهم ويكونوا يداً واحدة وتمسكوا بأرؤس أجدادهم رغم كل الظروف والأحوال والهن، وفي تصريح السيد "ماحي" عن أخيه عيسى في رواية "فضل الليل على النهار" يقول: "يكرهني بالنسبة إليه، لقد بعث روجي للشيطان. أنكرت أهلي تزوجت بكافرة، تخلت عن أرضنا مقابل دار في المدينة، استبدلت غندورتي ببدة أوربية، وحتى وإن وضعت الطربوش على رأسي، فهو يلومني على رمي عمامتي لحشائش القراض بينه وبينني لم يعد التيار يمر أبداً".⁸

الملاحظ أنّ الذات العربية التي مثلتها شخصية "ماحي" لاتعترف بعروبة من يتنكر لأصله ومنبته وأرضه، فالمتزوج بغير المسلمة مثلاً "كالسيد عيسى"، الذي بدّل من طريقة ملبسه فاستغنى عن عمامته واستبدل أهله بأناس غيرهم، يعتبر بمثابة الخروج عن عادات العرب وأعرافهم التي تأبى ذلك. ثمّ إنّ اتباع ملة الآخر ونمط عيشه انسلاخ من القيم والمبادئ الإسلامية الثابتة.

كما تصوّر الرواية في موضع آخر اندهاش وانهار الأنا من التطور والترقي الذي وصل إليه الآخر، وهذه إشارة أخرى إلى ضجر الأنا من الوضع المأساوي الذي يعيشه والفقر المدقع الذي يلازمه، "لم يكن عمي بحاجة إلى قنديل بترولي كي ينير ليلاليه؛ يكفي الضغط على زر لتشعل مجموعة مصابيح في السقف".⁹ فالسارد من خلال هذا الكلام لم يكتف بالوصف لجرد الوصف وإنما ليبين الفرق بين نمط عيشه وحياة الرفاهية التي ينعم بها عمّه، التي لم يشاهدها في بيت أهله الذين ظلوا لفترة طويلة بدون كهرباء، وتحقق لهم الإضاءة "بالمارموزا" بعد مرور أيام من العمل المرهق والشاق للوالد وتمكنه من اقتناء قنديل بترولي الذي اعتبره الوالد شيئاً كبيراً قد وقره لعائلته بعدما كان مسكنهم يفتقر لأدنى ضروريات العيش الكريم ومنها الكهرباء المنزلية.

ظلّ الفتى وبطل رواية "فضل الليل على النهار" يونس يجري مقابلة بين الحثي الذي يسكنه، ذلك المكان القبيح بفوضاه العامرة وروائحه الكريهة وشوارعه المكتنزة بالمتشردين والمتسولين والأطفال المتصعلكين أمثال: "دحو" والطفل

المتمرد "ألمورو" الذين لا يتركون أطفال القرية وشأنهم بل يحتقرون غيرهم بالضرب والعنف والشتم، أما المدينة الأوربية "ريو صالادو" أين يسكن عمه والتي تشبه إلى حد بعيد المدن الفرنسية في بناءاتها وحدائقها الجميلة وطبيعتها الساحرة ونمط عيش شعبها. وتبدو مقارنة السارد من البدايات الأولى للرواية بعد ترحيلهم من أرضهم أثناء احتراقها وتوقيع الأب "عيسى" على وثيقة التنازل عن أرضه لصالح السلطات الفرنسية، يقول: "جنان جاتو: مزبلة من الأكواخ والأجاث المتنوعة، الغاصة بالعربات المفككة والمتسولين والباعة المتجولين والحمارين المتخاصمين مع بهائمهم.... في هذه الأماكن العصية عن الوصف، يتجاوز البؤس جميع التصورات".¹⁰ لم يتقبل "يونس" في بداية الأمر بأنه سيكمل بقية حياته في مثل هذا المكان الذي يفتقر لأبسط مقومات الحياة ولا يوفر لعائلته أدنى شروط العيش الكريم، إلا أنه استسلم نوعا ما للأمر الواقع لأن ليس لديه خيار آخر غيره.

واستمر في مقارنة قريته بـ "ريو صالادو" أين يقطن عمه "ماحي" يقول واصفا جبال المناظر التي شاهدها "في أماكن متفرقة، توجد مقاعد يجلس عليها الشيوخ ليتسلوا بمرور الوقت. يركض الأطفال في الحديقة العمومية. لا يرتدون أسفال أطفال جنان جاتو، وليست لهم ملامح حتمية على وجوههم الجميلة المرحمة... تسود في الحي سكينه لا تصدق؛ لا تسمع إلا قهقهات الأطفال وزقزقة العصافير".¹¹

أشار الكاتب إلى قضية التعايش بين مختلف الثقافات والمعتقدات والتي مثلتها شخصيات رواية "فضل الليل على النهار"، كشخصية سيمون بن يامين من يهود الجزائر، وفابريس اسكاماروني وجبروم الملحد وجرمان المسيحية، وجان كريستوف لامي وإيمي باريلي والبطل جوناس.... وغيرهم من الشخصيات التي أظهرت انتماءاتها العرقية مباشرة في المتن الروائي أو التي اكتشفناها من خلال سلوكات وحوارات الشخصيات فيما بينهم.

لا تكشف الرواية عن صراعات الأنا مع الآخر فحسب بل تظهر كذلك التعايش السلمي فيما بينها، فمثلا حينما يسرد العم لابن أخيه يونس في قوله: "كنت في سنك تقريبا. يئس جدك من شفائي. حينما اقترح عليه أحد أصدقائه أن يأخذني عند الأخوات المسيحيات، رفض رفضا قاطعا. وما أن صحتي كانت تتدهور يوما بعد يوم، اضطر ذات صباح إلى أن يدق على باب ديرهن... إن الأخوات الطيبات هن اللائي أقنذن حياتي".¹² يشير العم "ماحي" إلى أننا ينبغي أن لانعزل أنفسنا ونطوي على ذواتنا والانغلاق بل ينبغي علينا التأقلم مع الآخر والتعايش معه، وهذا ما أكدّه عندما أشار إلى أن الفضل في شفائه من مرضه المستعصي يعود إلى الراهبات المسيحيات اللائي قدمن له يد المساعدة.

تظهر هذه المقاطع الهوية المفقودة التي سلبها الاستعمار الفرنسي لحبة من الزمن، مثلها صورة جنان جاتو كمينه من مناطق الجزائر الذي عانى ويلات الحرب، فالوضع الكارثي وحالة الشعب المأساوية وجرائم الاستعمار البشعة كانت ولا زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا. فوصف السارد لجنان جاتو هو صورة مضغرة عن حالة البلد ككل في تلك الفترة العصيبة.

الصراع بين المثقف والسلطة :

أسألت مساءلة "المثقف" حبر العديد من المهتمين والدارسين حول من هم المثقفون؟ وعلى أي أساس يمكن تصنيفهم؟ وما علاقة المثقف بالسلطة؟ لو انطلقنا من التساؤل الأخير، سندرك أن النخبة المثقفة تشكل خطرا حقيقيا للسلطة الحاكمة، فالمثقف المتصالح مع السلطة الممجد لقراراتها وأوامرها والمؤيد لها لا يشكل تهديدا لها ولمصالحها، في حين أن السلطة تناب المثقف المعارض لها ولقوانينها الرافض لممارساتها اللاإنسانية أحيانا، الأمر الذي يجعله محمّشا محقّقا من طرف السلطة الحاكمة، كونه يندمج مع أفراد شعبه يعبر عن قضاياهم وهمومهم والحامل على عاتقه مهمة الدفاع عنه ضد هؤلاء الذين استولوا على أبسط حقوقه ويحرمونه منها، وقد وضحت مقاطع من الرواية هذا الصراع الحاد والمتمثل في العرقلة التي سببتها السلطة للذات الساردة ومنعته الاستمرار في عمله. ونجد في رواية "مكر الكلمات" مثلا تلجأ الشخصية المثقفة المتمثلة في الشخصية الساردة "ياسمينه خضرا" إلى الإغتراب هربا من قمع السلطة السياسية والبحث عن الإستقرار والأمان الذي فقده في موطنه الأصل، لذلك نجد الكاتب يبرز جليا من خلال المتن النصي أن المثقف العربي يعيش حالة انشطار وتشتت خاصة وأن السلطة تضيق الحصار على فئة المثقفين، يقول "نظرة سريعة إلى أوضاع مثقفي البلد أفهمني أن بين الهرطقة والتدنيس، كان الأدب يرتفع محرقة"¹³ فما أصاب الأدب من تهقير سببه قمع السلطة

السياسية للفرد العربي المثقف وهذا ما أحدث شرخا كبيرا بينها واتسعت الهوة، ما أدى إلى اغتراب نفسي وصراع داخلي وهو ما كشفت عنه رواية مكر الكلمات على لسان ساردها "ياسمينه خضرا"، يتابع بالقول: "اللغة التي صنعت مولود معمري، وتميش كاتب ياسين، اللامبالاة القاتلة ضد محمد ديب، نفي شاعر الأمة مفدي زكريا؛ تلك كلها كانت أخطارا جدية..." أصغر هفوة تؤدي بصاحبها إما إلى التحقيق أو إلى السجن¹⁴. إن ما حدث لهؤلاء المثقفين الذين ذكرهم الكاتب من خيبات إزاء سياسة الأنظمة الحاكمة من قهر وإحباط وتعسف جعلهم يفضلون الإغتراب والتشرد خارج الأوطان، وهو ما عاشه "ياسمينه" وعبر عنه في قوله: "إذا غادرت إلى فرنسا، وأنا غير خائف، حاملا ربة فتى، وعيناي أوسع من الابتسامة"¹⁵. إن الإغتراب يتم عن وعي الذات بواقعها الحقيقي في حين أن الهروب من هذا الواقع أحيانا قد يوقعك في متاهات أخرى كثيرة لا تنتهي.

- النسق السياسي التاريخي:

1- الإستبداد العنصري (سلطة التمرد):

تتجلى العنصرية في أغلب الأعمال السردية لاسيما الإبداع في العالم العربي الذي يعاني من هذه الظاهرة الدمية؛ إذ لا يمكن لأي عمل روائي أن يتنصل من موقف صاحبه إزاء العالم من حوله، وهذا ما نجده حاضرا في الكتابة الروائية عند "ياسمينه خضرا" الذي يحاول أن يوصل رسالته الإنسانية إلى كل الأمم والشعوب أن لا فرق بيننا، وأنه ينبغي التعايش مع بعضنا البعض دون ضغائن ولا أحقاد على الرغم من اختلاف الديانات والثقافات ووجهات النظر وغيرها. فالتمييز العنصري كظاهرة سلبية موجودة منذ حقبة زمنية غابرة، وإنكار الآخر يظل بلا شك ممارسة ثقافية وسياسية لا ترقى إلى مستوى القيم الحضارية، وهذا ما عبر عنه الكاتب في أغلب رواياته.

تتبن رواية "فضل الليل على النهار" الكراهية التي يكتبها الآخر الأوروبي للعرب فشخصية "أندي" الذي ينادونه بـ"دادي" يمارس أشد أنواع العنف على خادمه جلول عندما يطلب منه القيام بالكثير من الأمور في وقت واحد تحت مرأى أصدقائه، غير أن هذا التصرف اللاإنساني أزعج قريبه، "جوزي" الذي حاول توقيف دادي والضغط عليه للكف عن تعذيب جلول وإرساله مرات عديدة إلى القرية البعيدة تحت شمس قاتلة فرد عليه قائلا "لا تتدخل، جوزي. أنت لا تملك خدما ولا تعرف طبيعتهم... إن العرب مثل الأخطبوط؛ يجب أن تضربه كي يتمدد. انتبه أنني كنت عربيا وسطهم، فاستدرك:

- أو على الأقل... بعض العرب"¹⁶. تلك النظرة السوداوية تنبأ عن حجم الحقد الدفين للآخر عن العرب، وأنهم يستقيمون بالقوة والعنف، وهذا أمر غير واقعي بطبيعة الحال.

1-1 - نسق الثورة:

وظف الكاتب الكثير من الأحداث التاريخية المتعلقة بالجزائر إبان الاحتلال الفرنسي من خلال تصوير مشاهد البؤس والشقاء التي كان يعيشها الشعب الجزائري ممثلة في "جنان جاتو" يقول السارد في البدايات الأولى للرواية "في هذه الأيام من 1930، كان البؤس والأوبئة يبيدان العائلات والحيوانات بعدوانية عجيبة، فيجبران الناجين على الهجرة أو على التشرد"¹⁷.

نلمس من خلال هذا القول أن المجتمع الجزائري كان يعاني ويلات الحرب من خراب ودمار وتشرد وأمراض، الأمر الذي دفع بالكثير من السكان مغادرة مقر سكناهم إلى مواطن أفضل، في حين نجد أن البعض ظل متشبثا بأرضه صامدا أمام هول الكارثة الإنسانية التي خلفها المستعمر الغاشم.

ويواصل الكاتب رصد أحداث الثورة التحريرية، يقول: "بعد شهور قليلة، في 07 نوفمبر، وفيما كان المساء يستقر على الشاطئ الفارغ، انبثقت أشباح مخيفة من عمق الأفق... لقد بدأ إنزال القوات الأمريكية على الشواطئ الوهرانية.

ثلاث طلقات نارية فقط؟ أين اختفى جيشنا العظيم؟ قال الجد روسيلوساخطا"¹⁸.

ولئن كانت بسالة قواتنا لا نقاش فيها إلا أن هذا المقطع الساخر للسيد روسيلو قد أشار إلى تخاذل القوات العسكرية في الوقوف سدا منيعا أمام دخول الأمريكان أراضينا بكل سهولة والغياب الشبه تام لهم في حراسة حدود الوطن، يواصل سخطه قائلا: "كان جنودنا ينتظرونهم متخذهين في مخابهم، استدارت سفن العدو خطوطنا الدفاعية عبر الجبل

الأسود ورسد على شواطئ أرزيو بلا عراقيل. وبعد ذلك، دخلوا في البرية عبر غابة تليلات دون أن يصادفوا أحدا... دخل العدو إلى وهران كما إلى السوق¹⁹، إن مثل هذا التصرف لا يمكن تفسيره إلا من خلال سطوة الأنساق الثقافية التي بقيت تتغلب على الفكر البشري وتسيطر عليه، فتقاعس الجنود في الدفاع عن أرضهم الأم وحمايتها بالشكل التام أوضح على أن دخول القوات الأمريكية والفرنسية والحملة الصليبية وغيرها من الحروب والمعارك فيه جزء من تخطيهم واستبصارهم أيضا. يصور ياسمينه خضرا أحداث الثورة بأدق تفاصيلها، "جاءت سنة 1945 بموجات أخبارها المتناقضة وهذياناتها. في ريو صالادو، يحب الناس الإفاضة في الحكي وهم يتناولون كوكوس الأنيزات. يضخمون أدنى مناوشة ويزينونها بأفعال حرية خرافية... أما بعض المستهزئين الذين يتحسرون على القامة النحيفة لديغول، فيعدون بإفاده بأفضل كسكسي البلاد كي يكسب قليلا من السمعة²⁰".

على الرغم من الأوضاع المأساوية في تلك الفترة، إلا أن سكان "ريو صالادو" غير مباشرين بالأمر وإن كان غالبية من جنسيات أجنبية أو جزائريون اندمجوا مع الآخر أو تزوجوا بغير المسلمات كالسيد "ماحي"، يكتفون بشرب كوكوس الخمر ويتحدثون بغير وعي عما يجري في المناطق المجاورة لهم من خراب ودمار ومعارك دامية بين جيش التحرير والقوات الفرنسية، ويصل بهم الشرب إلى حد الثالة فيصفون الجنرال ديغول بأشنع الأوصاف وأرذلها، كما تطرق أيضا إلى الكثير من الأحداث المتعلقة بالثورة فصورها تصويرا يحكم السبك ونقل وقائعها نقلا صادقا يتم عن تجربة شعورية صادقة عاشت وعاشت الأزمة الجزائرية أبعد صورها وأدق تفاصيلها، صور الثامن ماي 1945 بالكابوس المرعب يصف الحادثة بالقول "أكثر صاعقة من الوباء، وأكثر وحشية من القيامة²¹". لهول ما وقع في ذلك اليوم الذي ظل بصمة عار على جبين المستعمر إلى يومنا هذا. عندما خرج فيه الشعب الجزائري وكله فرح وسعادة بتحرره واستقلاله الذي وعده به المستعمر الفرنسي، لينصدم بخداع فرنسا لهم ووعودها المزيفة الكاذبة والأمر من كل ذلك المجازر الدموية التي أوقعتها آنذاك والتي راح ضحيتها آلاف الأبرياء والشرفاء.

يستحضر الكاتب من خلال روايته "مكر الكلمات" و "فضل الليل على النهار" أبرز المحطات التاريخية من لحظة دخول المستعمر الفرنسي أرض الجزائر إلى غاية استقلالها واسترجاع سيادتها وحريتها "لقد خربت الثورة الزراعية جميع كروم المنطقة".

- قال غوستاف مستنكرًا:

- ماذا غرسوا في مكانها؟ البطاطا؟

- وجلول؟ كيف كان مصيره؟ أعرف أنه كان نقيبا في الجيش الجزائري... ولكن منذ سنوات قليلة، أجمل مصيره -لقد أخذ تقاعده من الجيش برتبة كلونيل في بداية سنوات التسعين... ولكن الإرهاب الإسلامي وقع علينا كالصاعقة وتم اغتيال جلول قرب منزله²²".

لقد عانت الجزائر في تاريخها الطويل الكثير من المآسي فما إن غادر الاحتلال الغاشم المستبد أرض الوطن إلا ظهرت قضية دموية أخرى وهو الإرهاب الذي هدد أمن وسلامة الشعب بمجازره الإجرامية الخطيرة التي لم يسلم منها أحد لا الأطفال ولا النساء ولاحتى الشيوخ، فأحدث ذلك التطرف العنيف توترا جديدا على أمن البلد واستقراره وتجاوزته إلى البلدان القريبة المجاورة فتجاوزت مخاطره وتهديداته حدود الوطن.

1-2 - الالتواء وانشطار الهوية:

تعدّ الهوية من الموضوعات والمسائل الحساسة والهامة التي لاقت اهتماما كبيرا، فقد ركّز الروائي "ياسمينه خضرا" في روايته على هذه القضية لكونها تمس بثوابت ومقومات الشعب الجزائري والأساس المتين لكيانه ووجوده ضمن هذا العالم المليء بالتناقضات وفي ظلّ اختلاف الثقافات وامتزاج الأجناس وتلاقحها وانصهارها في بعض الأحيان. وعليه، يمكن القول أن مسألة الهوية والالتواء بمثابة وجهان لعملة الواحدة إذ؛ تجمعها وشائج قوية. فالهوية فهي مجموع السمات المشتركة سواء العقائدية الاجتماعية أو الثقافية الفكرية التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد وهي متغيرة بحسب تغير طبائع الآخرين وسلوكياتهم وتوجهاتهم المختلفة؛ وبالتالي تتأثر بالعوامل المحيطة بها لذا وجب معرفة الذات معرفة تامة لحمايتها من كل المؤثرات الخارجية التي قد تمس بكيونتها، أما الالتواء فهو انتساب الفرد حسيا وعاطفيا إلى مجموعة اجتماعية معينة، تقول عنه نجلاء عبد الحميد راتب "الزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين، لما

يقتضيه هذا من الالتزام بمعايير وقواعد هذا الانتصار وبنصرته والدفاع عنه، وفي مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية الأخرى²³، إن ميل شخص ما إلى مجموعة من الناس أو مكان معين أو عقيدة مخالفة له أو هيئة ما أو ماشابه هو شعور داخلي كامن في الذات الإنسانية إما أن يتستر عن ذلك أو يفصح عنه بطرق مباشرة أو غير مباشرة فتلاحظ انتماؤه لعقيدة أو حزب سياسي أو ما إلى ذلك من خلال سلوكه أو ردود أفعاله أو إبداءه.

ونجد في رواية "فضل الليل على النهار" كما في أغلب روايات ياسمينه إصرارا على التأكيد المستمر والدائم على ارتباطه العميق بأرضه التي يرى فيها جزءا من ذاته، يقول على لسان بطله السارد "يونس": "لم توجد عينا أي إلا لأرضه. لم يكن يشعر بالراحة إلا في هذا المكان²⁴". هذا الالتحام المتين بين الكاتب وأرضه لا يمكن أن يتصوره إلا من أحب وطنه بصدق وأخلص له بعشق النية وصفاء السريرة، وقد ورث حب الوطن من آباءه وأجداده، لقد علمه والده قيمة الوطن ومعنى أن تدافع بنفسك والنفس من أجله والتفاني في خدمته، يردف قائلا: "كان أبي قادرا على ضمّ السنبال بذراعيه وترك نفسه يحترق معها. ألم يكن في أوج انسجامه وسط حقوله؟"²⁵، يعكس هذا المقطع السردى أنّ الوطن والإنسان شيئا متلازمان ومكملان لبعضهما البعض فلا يوجد وطن بدون إنسان، ولا حياة للإنسان من غير وطن فالجزائر هي يونس ويونس هو الجزائر، التي لم ولن يتخلى عنها.

في المقابل من ذلك نجد أعداء الوطن الذين يتطاولون على وطننا الحبيب ويحاولون المساس به وبمقوماته وثوابته، فالجزائر كانت وستظل شامخة لها تاريخها العظيم وبطولاتها الكبيرة التي خلدها التاريخ بأحرف من ذهب رغم أنف الحاقدين لها، وكلّ محاولاتهم البائسة للإطاحة بها لن تجدي نفعا. نجد في الرواية تصوير للوضع المزري الذي كان يتخبط فيه البلد أثناء الثورة، خاصة في الاجتماعات التي كان يقوم بها العم "ماحي" في بيته والتي يحضرها الضيوف من كل صوب و حذب من عرب وبربر كلهم يجتمعون حول فكرة واحدة، كما يظهره المقطع التالي: "يتحدث الجميع عن بلد اسمه الجزائر؛ ليس ذلك الذي يدرس في المدرسة ولا بلد الأحياء الراقية، وإنما بلد آخر مسلوب ومستعمر ومقموع، والذي يجتر غضبه مثل أكل فاسد -جزائر جنان جاتو والانكسارات الجارحة والأراضي المحروقة والعذابات المتكررة والحمايين... بلد يحتاج إلى إعادة تعريف حيث اختارت جميع متناقضات الكون أن تستنزف طاقته وتعيش على مدخراته²⁶". يستغرب الولد "جوناس" وهو الفتى الصغير الذي يحاول فهم الأمور رغم صغر سنه، فالجزائر التي يتناقش حولها رفقاء العم ليست نفسها التي درس عنها في المدرسة، لأنهم يصفون بلدا أنهكتهم الحرب وسلبت منه كل مقومات الحياة، وتركت شعبه يعاني الفقر والبؤس والحرمان، يتساءل في حيرة كم سيتطلبه الوقت من سنين لكي يعود كما كان.

لا يزال "جوناس" يحاول إيجاد أجوبة للأسئلة التي تدور في خله لماذا يتصرف الآخر مع الأنا بهذه الطريقة البشعة؟ تلك الأنا التي تمثل الجزائر بصفة خاصة والوطن العربي بصفة عامة، فمثلا في المدرسة يلحظ تتمر الآخر من الفرد العربي، و يظهر ذلك في حديث الأستاذ لتلميذ يدرسه: "لماذا يا عبد القادر لم تنجز تمرينك؟ وحينما لم يتلق جوابا، خاطب بقية القسم: هل يمكن لأحدكم أن يقول لي لماذا لم ينجز عبد القادر تمرينه؟ وحينما لم يتلق جوابا، خاطب بقية القسم: هل يمكن لأحدكم أن يقول لي لماذا لم ينجز عبد القادر تمرينه؟" دون أن يرفع أصبعه، أجاب مورييس باندفاع: "لأنّ العرب كسالى يا سيّدي". إن القهقهات التي انطلقت حولي سمحتني²⁷. إنّ الأحقاد التاريخية للذات العربية ما هي إلا حافز دائم لتأكيد الأنا اختلافاته الوجودية والثقافية والحضارية، واستهزاء الأستاذ للطفل ماهو إلا تأكيد على العظمة التي ينصبها الآخر لنفسه والصاق النقص بالأنا واستصغارها، بفرض مركزيته وبالتالي تهيمش وإضعاف الأنا للتغلب عليها والقضاء على وجودها.

يرز الروائي "ياسمينه خضرا" مسألة الهوية الضائعة التي يحاول استرجاعها بشتى الطرق والوسائل ففي "رواية فضل الليل على النهار" عندما خاطب عيسى ابنه بالقول: "لماذا لا تحاول أن تفهم يا ولدي؟ قلت لك في المرة السابقة: حالتني في الحضيض الأسفل ولكنني لم أمت بعد. أنا نادم أشد الندم لأنني لا أستطيع تورثك أرض أجدادك. ولا يمكنك تصور مدى ندمي وألمي لا تمر لحظة دون أن ألوم نفسي. ولكنني لا أستسلم أستमित في الشغل كي أسترجع قليلا مما ضاع²⁸".

و يشير هذا المقطع إلى سعي الأب لاسترجاع مافقده عاجلا أم آجلا لكي ينعم أبنائه في مستقبل الأيام بالأمن والأمان والاستقرار، ثم إنّ التمسك الشديد بأرضه لدليل قاطع على حبه الكبير لأرضه وتعلقه بها، فقد كشفت الشخصيات والأمكنة التي وظّفها الكاتب عن الهوية المنتزعة المسلوكة يتضح ذلك من خلال إعجابه بالمدينة الأوربية "ريو سالادو" حيث "كانت قرية استعمارية رائعة، بأزقتها المخضوضرة والمنازل الفاخرة. تبسط الساحة التي تنظم فيها الحفلات الراقصة وتغني فيها أشهر الفرق الموسيقية بساطها المبلّط على بعد خطوتين من مدخل مقر البلدية، محاطة بأشجار النخيل المتعاطمة التي يربط بعضها بعضا شريط مزخرف من المصاييح.²⁹"

إنّ هذا التداخل والتعدد في الانتعاءات قد يؤثر على الهوية المحلية من خلال حالة التشظي التي قد تصيبها أو من خلال التمزق الداخلي للفرد نفسه، لذا وجب الالتفاف حول الذات الوطنية وحتى القومية، للوقوف يدا واحدة في وجه كل من تسوّل له نفسه المساس بهوية الوطن العربي.

صفوة القول، لقد طرحت رواية "فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا موضوعات متعدّدة منها: علاقة الأنا بالآخر الأوربي سواء كان فرنسيا أم يهوديا أم ملحدًا مسيحيًا...إلى غير ذلك، وعن الهوية وصراعها الداخلي بين الاندماج مع الآخر أو الانعزال والتقوقع مخافة أن تفقد مقوماتها الثابتة، بالإضافة إلى رصد مدى تأثير الانفتاح الإيجابي أو السلبي على الذات العربية، كما كان للثورة الجزائرية حضورا قويا في أعمال "ياسمينه خضرا" فقد وقف الكاتب على محطاتها التاريخية المتباينة مروراً من اندلاع حرب التحرير إلى غاية الاستقلال وما بعدها، صف لذلك تسليط الضوء على الموضوعات المهمشة (كثمة المرأة والمسؤولين والمنبوذيين.....) وغيرهم، التي تغاضى عنها الأدب الرسمي.

لذا، يعدّ "ياسمينه خضرا" من الروائيين الذين خطو خطوات عملاقة في مجال الكتابة السردية، وهذا ماأفصحت عنه المقدرة الكبيرة في تطويع اللّغة وامكاناته الواسعة في مجال الكتابة الروائية ورؤية العميقة للعالم.

- خاتمة:

تناولت روايتنا "مكر الكلمات" و "فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا حركية الأنساق الثقافية المبنوثة في نصه الروائي وتفاعلاتها فيما بينها. ومن هنا فقد أسفرت دراستنا على جملة من النقاط نستخلصها كالآتي:

-كشفت لنا هذه القراءة التقديّة تطرق الروائي إلى عديد الموضوعات الاجتماعية الثقافية والسياسية والتاريخية والدينية، وهذا لوضع القارئ في خضمّ الأحداث وإشراكه في إنتاج قراءات جديدة من خلال تأويلاته المعقّمة .

-تبرز العناوين أنساقا شديدة المختالّة، إذ تحتاج إلى قراءة واعية معقّمة لتأويلها وكشف مضمراتها، ففي رواية "فضل الليل على النهار" رصدنا حب البطل لاستمرار الليل وعدم طلوع النهار، لأنّ هذا الأخير يكشف له الواقع المرير والمأساوي الذي يعيشه، أمّا في "مكر الكلمات" تبرز قوة الكلمة في التأثير على المتلقي، وقدرتها في الصنع من العدم أشياء جميلة، وتغيير واقع مجتمع بأكمله، إذ يتخذها المبدع وسيلة لإيصال رسالة شعبه وأمتة خاصة ذلك الذي يعيش ويلات الحروب.

- إنّ الصراع الإنساني الوجودي بين الأنا والآخر كان وسيظل قائما على مرّ العصور و الأزمان. غير أنّ الكاتب من خلال نصه الروائي قدّم رؤية مغايرة تتمثّل في تعزيز افتتاح الذات على الآخر. الذات التي تسعى للتواصل مع الآخر المختلف وفرض كينونتها للتفاعل معه، وهذا من أجل خلق نوع من الانسجام والتفاعل بينها.

- صوّرت لنا الروايتان واقع المثقف العربي المرير الذي يعاني حالة الضياع واغتراب الذات، بالبحث عن واقع أفضل خارج الأوطان وهو ما عبّرت عنه رواية "مكر الكلمات" وما جسّده البطل "جوناس" في رواية "فضل الليل على النهار" خير دليل على ذلك.

- عالجت الروايتان مشكلة الهوية والانتعاء، من خلال علاقة الأنا بالآخر، إذ يظهر صراع الهوية المسلوكة من قبل الاحتلال الفرنسي التي عبّرت عنها قرية "جنان جاتو" بتصوير قّمة البؤس والفقر الذي يعانيها سكان الحيّ إلّا أنّهم مقتنعين راضين بهذا الوضع، وفي إعجاب "جوناس" بالآخر دليل على ذاته الضائعة التي يأمل في استرجعها يوما ما عن طريق التعايش السلمي، على عكس والده "عيسى" الذي يأمل باسترجاع أرضه وما فقده دون التصالح مع الآخر.

-لقد إستعان الكاتب بجملة من الأنساق الثقافية المتوارية خلف اللّغة لإيصال رؤاه وقناعاته، فجاءت الرواية حاملة لرؤى ثقافية مثلتها جملة من التناقضات خاصة فيما تعلق بالصراع الإنساني، والصراع السياسي الايديولوجي.

لقد ارتقت الرواية الجزائرية إلى مصاف الرواية العالمية من خلال استثمار المبدعين في آليات الكتابة السردية، انطلاقاً من الاهتمام بالمكنون اللغوي من الجانبين الجمالي والفني، بالإضافة إلى النهل من المخزون التاريخي والتراثي والأسطوري الأمر الذي جعلها لغة معاصرة ترتقي إلى مدارك الأفكار والتصورات، بأسلوب جريء في الطرح، فكانت مواضيعها من عمق الواقع المعاش، إضافة إلى انفتاحها على أفق أوسع من العالم، وعن أهم سمة ميزت الخطاب الروائي الجزائري هي الخصوصية المحلية لها. وتبقى الرواية وهي تمرر أنساقاً مضمرة تتغلغل داخل الخطاب بحاجة إلى دراسات معمقة، لفصحها وتعريفها بالوقوف على الخلل الثقافي حتى لا يؤثر على الذهنيات الفردية والجماعية.

- قائمة الإحالات:

- 1- ابن منظور (أبو الفضل جلال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، تخ: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ط1، بيروت- لبنان، مادة (ن س ق)، مج10، 2003، ص424.
- 2- الزخشري (أبو القاسم جلال الله محمد بن عمر بن أحمد)، أساس البلاغة، تخ: محمد باسل عيون، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، ج2، 1998، ص266.
- 3- علي محمد السلمي، تحليل النظم السلوكية، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.)، القاهرة، 1995، ص33.
- 4- سعد علي المرعب جعفر، النقد الأثوي، ديوان عبلة بنت المهدي، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، 2018، ص55.
- 5- سباح عبد الفران، ثقافة النص، قراءة في السرد المعاصر، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1، عمان- الأردن، 2016، ص17.
- 6- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء- المغرب، 2005، ص84.
- 7- وسيلة بوسيس، بين المنظور والمنثور في شعرية الرواية، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2009، ص75-76.
- 8- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، دار سيديا، (د.ط.)، الجزائر، ديسمبر 2013، ص108.
- 9- المصدر نفسه، ص56.
- 10- المصدر نفسه، ص33.
- 11- المصدر نفسه، ص90.
- 12- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ص103.
- 13- ياسمين خضرا، مكر الكلمات، تر: حنان عاد، دار الفارابي-سيديا، ط1، بيروت-لبنان، 2011، ص33.
- 14- المصدر نفسه، ص33.
- 15- المصدر نفسه، ص34.
- 16- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ص189.
- 17- المصدر نفسه، ص12.
- 18- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ص190.
- 19- المصدر نفسه، ص191.
- 20- المصدر نفسه، ص238-239.
- 21- المصدر نفسه، ص240.
- 22- المصدر نفسه، ص521-522.
- 23- نجلاء عبد الحميد راتب، الالتئام الاجتماعي لشباب المصري، دراسة سوسيولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة للنشر، (د.ط.)، القاهرة-مصر، 1999، ص57.
- 24- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ص13.
- المصدر نفسه، ص17، 25
- 26- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، ص117-118.
- 27- المصدر نفسه، ص120.
- 28- المصدر نفسه، ص70.
- 29- المصدر نفسه، ص157.

- قائمة المصادر :

- 1- ياسمين خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، دار سيديا، (د.ط.)، الجزائر، ديسمبر 2013.
- 2- ياسمين خضرا، مكر الكلمات، تر: حنان عاد، دار الفارابي- سيديا، ط1، بيروت-لبنان، 2011.

- قائمة المراجع:

- 1- ابن منظور (أبو الفضل جلال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، تخ: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ط1، بيروت- لبنان، مادة (ن. س. ق)، مج10، 2003.

الأنساق الثقافية المضمرة في ترسبات الكتابة الإبداعية عند ياسمينه خضرا (رواية "مكر الكلمات" و "فضل الليل على النهار" - أمثودجا -)

- 2- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد)، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، ج2، 1998.
- 3- بعلي حفاوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات)، منشورات الاختلاف، الجزائر، و الدار العربية للعلوم-ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2007.
- 4- سعد علي المرعب جعفر، النقد الأنثوي، ديوان عبلة بنت المهدي، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، 2018.
- 5- سباح عبد الفران، ثقافة النص، قراءة في السرد البيني المعاصر، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1، عمان-الأردن، 2016.
- 6- عبد الله الغدّامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء-المغرب، 2005.
- 7- علي محمد السلمي، تحليل النظم السلوكية، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، القاهرة، 1995.
- 8- نجلاء عبد الحميد راتب، الانتماء الاجتماعي لشباب المصري، دراسة سوسولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة للنشر، (د.ط)، القاهرة-مصر، 1999.
- 9- وسيلة بوسيس، بين المنظور والمنثور في شعرية الرواية، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2009.